

بيداغوجية المقاربة بالكفاءات وأثرها في تحسين مردودية المتعلم

أ. سعاد سليمان

جامعة الطاهر مولاي - سعيدي

إن التصور الجديد لنموذج مثالي، يُصمَّم خصيصا لمعالجة مشاكل التربية والتعليم، رغبة في تحقيق الحاجات الاجتماعية المتزايدة التي تتزايد بتطور أساليب التعليم وتقنياته الحديثة، تعد بيداغوجية المقاربة بالكفاءات ثورة تجديد حتمية في مشروع إصلاح تربوي يتطلع إلى تحقيق أهداف معرفية، مهارية ووجدانية تترجمها حاجات ومشكلات يسعى التلاميذ إلى بلوغها عبر عمليات منظمة، وذلك بمراعاة من جهة، الفروق الفردية للمتعليم في منهجية عمله، ومن جهة أخرى الاعتماد على الأفواج لبناء المعرفة وتطويرها، قصد رفع مردودية المتعلم وفعاليته، وتعتمد هذه الطريقة على التحليل الدقيق للوضعيات التي يتواجد فيها المتعلمون أو التي سيتواجدون فيها مستقبلا، لها علاقة بواقعهم المعيش، وذلك بتسخير مكتسباتهم المعرفية والمنهجية؛ كما تنص على تحديد الكفاءات المطلوبة لأداء المهام وتحمل المسؤولية الناتجة عنها، مع مراعاة المحيط الاجتماعي.

إذا، هل نجحت هذه البيداغوجية في بلادنا؟ وإن لم تنجح بشكل عام، فما هي الحلول المثلى والبدايل المنتظرة؟ دون أن ننسى أننا في سباق مع الزمن حيال تكوين جيل كفء.

لكي ندرك أبعاد هذه المقاربة وغاياتها، لابد أن نحدد المفاهيم الأساسية:

البيداغوجية: (La pédagogie) فالعديد من الكتابات والتحليل التربوية تتبنى وجهات النظر التي تميز في لفظ "بيداغوجيا" بين استعمالين متكاملان فيما بينهما بشكل كبير، وهما: أولاً: أنها حقل معرفي قوامه التفكير الفلسفي والسيكولوجي في غايات الأفعال وتوجهاتها والأنشطة المطلوب ممارستها في وضعية التربية أو التعليم، على الطفل أو الراشد، أو عليهما معاً. ثانياً: نشاط عملي يتكون من مجموع الممارسات والأفعال التي ينجزها كل من المدرس والمتعلمين داخل الفصل الدراسي؛ وبهذا يصير من المستساغ تعريف البيداغوجيا على أساس أنها اختيار نظام ما في العمل التعليمي - التعليمي، أو إجراءات وتقنيات معينة توظف في ارتباطها بوضعية تعليمية - تعلمية محددة.

ويبدو أن هذين الاستعمالين مفيدان كثيراً في التمييز بين ما هو نظري في البيداغوجيا، وما هو ممارسة وتطبيق داخل حقله¹.

المقاربة: (Approche) هي تصور مشروع عمل قابل للإنجاز على ضوء استراتيجية تهتم بكل العوامل المتداخلة في تحقيق الأداء الفعال، والمردودية المناسبة، ووسائل ومكان وزمان وخصائص المتعلم والوسط والنظريات البيداغوجية².

المقاربة بالكفاءات: (Approche par compétence) هي بيداغوجية وظيفية تعمل على التحكم في مجريات الحياة بكل ما تحمله من تشابك في العلاقات وتعقيد في الظواهر الاجتماعية، فهي اختيار منهجي يمكن المتعلم من النجاح في هذه الحياة على صورتها، وذلك

بالسعي إلى تثمين المعارف المدرسية وجعلها صالحة للاستعمال في مختلف مواقف الحياة³.

الكفاءة: هي مجموعة قدرات مدججة، تمكن المتعلم من مواجهة وضعية ما بصفة تلقائية، والتعامل معها بطريقة ملائمة، فهي حسن الأداء والقدرة على إدماج وتجنيد وتحويل موارد (معارف، معلومات، مهارات، تفكير...) في سياق ما لمواجهة مختلف المشاكل، أي إنجاز عمل⁴. لا تتمثل الكفاءة في مجموع المعلومات التي يحتاجها الفرد للقيام بنشاط فكري أو معرفي أو مهاري، بقدر ما تتمثل في القدرة على إدماج المعلومات والمعارف والمهارات المكتسبة، قصد إيجاد حل ملائم لمشكل جديد.

وهنا، يجب الإشارة إلى أنّ معرفة التصرف عند المتعلم ترتكز أساسا على معارف ذات صلة بمواقف من جهة أخرى، وينبغي أن تأخذ طابعا اندماجيا -وليس إضافة بعضها إلى بعض- كي يجعل مختلف الكفاءات تعمل فيما بينها، وبذلك يسمح له أن يجند موارد امتلاكها سابقا في وضعيات معينة، وأن ينتقي منها ما يناسب الوضعية الراهنة.

الوضعية/المشكل: هي وضعية يحتاج المتعلم في معالجتها إلى سياق منطقي يقود إلى ناتج، وينبغي أن يكون فيها السياق والناتج جديدين أو أحدهما على الأقل، كما تستدعي الوضعية/المشكل القيام بمحاولات مثل فرضيات وطرح تساؤلات، والبحث عن حلول وسيطة تمهيدا للحل النهائي، ومقارنة النتائج وتقييمها، ومن بين ما تتطلبه الوضعية هو تنظيم التدريس الذي يقوم على إيقاظ دافعية المتعلم وفضوله عبر التساؤل، ووضعه في وضعية بناء المعارف وهيكلية المهمات، لكي يوظف كل متعلم العمليات الذهنية المستوجبة قصد التعلم، كما تتمثل أهمية هذه

الوضعيات في ارتباطها بمحاجات المتعلم، الشيء الذي يحفز على البحث عن المعرفة واكتسابها ذاتيا، ثم استثمارها في إطار مهارات أو مواقف وسلوكات في بناء تدريجي يقضي إلى تحقيق الكفاءة.

إذن، يجب أن تكون العملية التعليمية متلائمة مع المحيط الثقافي والاجتماعي للفرد المتعلم، والتوقف عن حشو ذهنه بالمعلومات الجاهزة، فهذا يعيق الإبداعية عنده، إذ عليه بناء مساره التعليمي بنفسه وتوجيه من معلمه.

تنمو الكفاءة في شكل بنائي (بناء المعرفة يكون حلزونيا) وليس تراكميا في الذهن بشكل محفوظاتي، ويتم ذلك الاعتماد على المعارف والتحكم فيها، إذ تستغرق هذه الدورة كل حياة الفرد، بتغير الكفاءة وفق التعلم المستمر، يعني: كقاعدة "كمرحلة" كختمية، ثم نبدأ من جديد هذه الدورة، بهذه الطريقة يتم التعلم وفق بيداغوجية المقاربة بالكفاءات، وتتغير وضعية الكفاءة وفق حركة التعلم الدائمة والمستمرة.⁵ يظهر التسلسل التصاعدي في بناء الكفاءة اللاحقة من مكونات الكفاءة السابقة حتى نصل إلى الكفاءة النهائية في علاقة متلاحمة، وهي كالآتي:

الكفاءة القاعدية: تعتمد على مجموعة من نتائج التعلم الأساسية (أهداف التعلم) التي لها علاقة بالوحدات التعليمية مباشرة، والتي توضح بدقة ما سيفعله المتعلم أو ما سيكون قادرا على أدائه أو القيام به في ظروف معينة، وكلما تحكم فيها تسنى له الدخول دون مشاكل في تعلمات جديدة ولاحقة، فهي الأساس الذي يُبنى عليه التعلم⁶، مثلا: يقرأ معلومات واضحة ودقيقة في نص القراءة.

الكفاءة المرحلية: تتكون من مجموعة الكفاءات القاعدية، التي اكتسبت من الوحدات الدراسية، تسمح بتوضيح الأهداف الختامية لجعلها أكثر قابلية للتجسيد، وهي تتعلق بشهر أو فصل أو مجال معين⁷،

مثلا: يقرأ التلميذ النص جهرا مع مراعاة حسن الأداء وجودة التمثيل، وإدراكه لما يقرأ.

الكفاءة الختامية: وهي بدورها، تتكون من مجموعة الكفاءات المرحلية التي اكتسبت من المحاور الدراسية، مثلا: يقرأ نصوصا مختلفة من المستوى الملائم لسنة الدراسي، فتلي تلك النصوص حاجاته الشخصية والمدرسية والاجتماعية، وتكتسب هذه الكفاءة الأخيرة في نهاية السنة أو الطور الدراسي، ففي نهاية الطور المتوسط مثلا، يقرأ المتعلم نصوصا ملائمة لمستواه ويتعامل معها⁸.

يتم التعلم بشكل متبادل بين المدرسة والمحيط الاجتماعي، حيث يوظف التلميذ ما يتعلمه في بيئته الخارجية في تشكيل خبراته المدرسية⁹، كما أنه يستفيد مما تعلمه في مدرسته في حل بعض المشكلات التي تصادفه في حياته اليومية، ويستكشف كيفية التكيف معها.

وعليه، فهذا التوجه الجديد لبيداغوجيا المقاربة بالكفاءات يعمل على تجديد النظر لما ينبغي أن يكون عليه المتعلم وعلاقته بالمعرفة وبالعالم حتى يكون نموذجا لمواطن مستقل، بناء ومزود بمعالم قوية في مجتمع موجه نحو مستقبل تقاس فيه الثورة بالكفاءات والمعارف، فتتمية الكفاءات يكون في ثلاثية لا نستغني عنها، وهي توظيف الكفاءة واستثمارها والاستفادة منها.

نحن لا نتعلم بالضرورة لنعرف، و لكن نتعلم خاصة لتصرف، ففي سياق التعليم بالكفاءات لا نطلب من التلاميذ القدرة على إنجاز نشاط؛ بل ببساطة إنجاز هذا النشاط..

أنا = ما أعرف فعله (Je suis ce que je sais faire).

من هنا تتضح أهمية القدرة على الإبداع والتفكير الجيد، والتي يمكن تجسيدها من خلال النشاطات التي توجه للتلميذ، وتتيح له مجالا للتعبير عن إبداء الرأي، وإدراك معارف اجتماعية وقيمية مثل المواطنة والتعاون، فضلا عن نقل قدراته المضمرة إلى أداءات فعلية.

لعل هذا يستدعي الحديث عن طريقة المناقشة التي تجعل المتعلم أكثر فعالية من مجرد مستقبل للمعلومات وتخزينها، وتضعه في مواقف تتطلب منه التفكير لإيجاد حلول للمشكلة التي تواجهه، فاستخدام " أسلوب المناقشة في التدريس يساعد على نمو التفكير الإبداعي عند المتعلمين، وخاصة عندما يتعرضون لحل مشكلة ما، أو مناقشة قضية اجتماعية، فنجد الطلاب يتكثرون حلولاً جديدة للمشاكل أو القضايا التي تواجههم أو تعرض عليهم".¹⁰ يقودنا هذا للحديث عن طريقة التعلم التعاوني على النحو الذي تبناها كل من "روجر جونسون" و"دفيد جونسون" (Roger Johnson et David Johnson)، حيث يكون المعلم مشرفاً وملاحظاً، ويتيح للتلاميذ مجال التفاعل فيما بينهم فتتبنى مهاراتهم المتعددة، ويتم الإفصاح عن وجهات النظر المختلفة بما يساعد على تنمية روح الجماعة بين المتعلمين واكتساب مهارات تعاونية. ويمكن تجسيد هذا النوع من الأنشطة، في شكل الأعمال التوجيهية التي تعرض في الأقسام الدراسية، حيث يفترض ألا يتجاوز عدد التلاميذ في القسم الواحد عن عشرين تلميذاً على أكثر تقدير، إذ " يتم إثارة عقول الطلاب للتفكير من خلال طرح نشاط تفكيري - أو أكثر - عليهم، ونتيجة لممارساتهم له، تنمو عمليات التفكير العليا لديهم...".¹¹ ، وضمن مجموعات بحثية، يقوم التلاميذ بإنجاز عروض مشتركة، يتولى كل تلميذ جزءاً من محاور العرض، بما يتيح النقاش

والحوار بين أعضاء المجموعة، واكتساب آليات التفكير، والهدف من ذلك هي خلق مدرسة إبداعية تعتمد الابتكار وتفجير الطاقات الإبداعية. ومما يمكن إدراجه ضمن بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات، والتي تمكن المتعلم من اكتساب مهارات وسلوكات تتلاءم مع الوضعيات الجديدة، "مقاربة الإدماج" (approche par intégration) التي تعد إحدى الآليات التي تعتمد عليها مدارس التربية الحديثة لتطوير المعارف السلوكية والمهارية لدى المتعلم. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى المقاربات النظرية التي اقترحها الباحث التربوي "فليب بيرنود" (Philippe Perrenoud)، والتي يستشف منها أهم مرتكزات وضعية التعلم الإدماجي (situation d'apprentissage intégrative)، حيث يساهم المتعلم في عملية بناء الدرس انطلاقا من مكتسبات سابقة ومحاولة تكييفها مع متطلبات وضعية ما لاكتساب نشاط تعليمي جديد، يستدعي ذلك تبوء التلميذ الدور المحوري لإدماج مجموعة المهارات المستعرضة وتفعيلها، بما يتيح له اكتساب مهارات لمواجهة وضعيات جديدة. وتأخذ الحلول المتعلقة بالوضعية المشكلة مسارين: وذلك حينما يتم وضع المتعلم في وضعية تجريبية ليكشف من خلالها التعلم المستهدف، كاستشاف الغاز المذاب في المشروب الغازي، وكذلك حينما يوضع المتعلم في وضعية تعليمية شبيهة بوضعية أخرى يكون قد عرفها من قبل، كفصل مكونات خليط بالترشيح. وهكذا تنبني هذه المقاربة على وضعية-مشكلة مستقاة من الحياة اليومية، وعلى هذا الأساس فإن كل الأنشطة السنوية يمكن أن تسير في هذا الاتجاه.

ويمكن أن نختار هذه الوضعية من نشاط القواعد:

- الوضعية: إسناد الفعل الأجوف في الماضي والمضارع في حالات الرفع والنصب والجزم، إجراءات تطبيقية حول الوضعية:
- 1- أكتب فقرة تسرد فيها حدثاً أو مغامرة من اختيارك على أن توظف أربعة أفعال جوفاء.
 - 2 - أعرب الأفعال الجوفاء الواردة في النص : (لكن البحر هاج، كل الناس اعتقدوا أن بينيلوب باتت أرملة).
 - 3- استخرج من النص الأفعال الماضية والمضارعة، ثم أسندها إلى ضمائر الرفع المنفصلة، ثم بين ما يمكن ملاحظته.
- يمكن للتلميذ أن يتذكر من خلال نشاط هذه الوحدة مايلي:
- الفعل الأجوف هو ما كانت عينه حرف علة، يحال التلميذ هنا إلى أمثلة وردت في النص الذي أخذ منه هذا الجزء (صار- قالت - يهيم- صاحوا).
 - تحذف عين الفعل المضارع المجزوم في ضمائر المتكلم: (أنا، نحن) المخاطب (أنت، أنت) الغائب (هو، هي، هن) وتحذف عين الأجوف في الأمر مع ضمائر الرفع: (أنت، أنتن).
- التقويم: يعد التقويم وفق "المقاربة بالكفاءات" عملية تربوية ترمي إلى تعديل المفاهيم العلمية من خلال تصليح الاعوجاج الخاص بالكفاءات المعرفية والتقنية للمتعلم، مما يجعل من التقويم في نفس الوقت أداة قياس لمدى تطوير الكفاءات وعامل تكوين المتعلم، لهذا أصبح التقويم التربوي حسب التعليمات التربوية الخاصة "بيداغوجيا الكفاءات" يستلزم من المكون تحديد أهداف ومعايير نجاح خاصة بالكفاءات المقصودة، حيث يسمح ذلك للمكون بالاطلاع على نقاط الضعف ونقاط القوة الخاصة بتعلم المتعلم.

واقع المقاربة بالكفاءات في الجزائر: لو ألقينا نظرة على اكتساب التعلّمات لدى التلميذ الجزائري، لتبيّن أن بعض الأساتذة يفضلون الطريقة الإلقائية، فيتعرض التلميذ لأوقات طويلة من التلقين المتواصل، ويشكل ذلك عائقا لسير عملية التفاعل والاستيعاب الإيجابي، وفي كثير من الأحيان يصبح القسم مصدر إزعاج وتوتر بسبب السلطة التي يمارسها الأستاذ، فينعكس ذلك سلبا على مهاراته التعليمية ويشعره بالتهميش، ونشير إلى أن الهياكل التعليمية في الجزائر لم يتح لها القدر الكافي لأداء العملية التربوية على أكمل وجه، القائمة على استراتيجية تذكر المعرفة واستحضار المعلومات، وذلك بعد الانتقال من التدريس بالأهداف إلى نموذج التدريس بالمقاربة بالكفاءات، الذي يعد أمرا صعبا على الأساتذة القدامى، مما يجعلهم يتابعون التدريس بالطريقة القديمة التي تعودوا عليها، دون الاهتمام بهذه الطريقة الجديدة، وما يمكن ملامسته على المستوى التطبيقي ابتعاد الإصلاحات التربوية عن الواقع، مما انعكس سلبا على المستوى التحصيلي للتلاميذ، وهذا أكدت عليه الكثير من البحوث التربوية التي أجريت في الجزائر.

ويرد ذلك إلى أسباب عديدة، لعل أهمها إهمال دور الأستاذ وإخراجه من دائرة الإصلاحات التربوية، مما أدى إلى ضعف المردودية البيداغوجية، هذا إذا أضفنا أن الكثير من العوائق تقف دون أداء الأستاذ لدوره التعليمي أو التربوي بالصورة المثلى، نذكر في هذا السياق ضعف أجور عمال التربية مع غلاء مستوى المعيشة، وانعدام تحفيزهم ماديا ومعنويا، كبعد مكان إقامته مثلا، ويعود ذلك إلى التغيرات الاقتصادية التي تشهدها الجزائر، والمدرسة التي يعتمد عليها المجتمع ويعقد عليها آماله، تتأثر بتلك المعطيات.

ونخلص إلى أن بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات تعمل على تمكين المتعلمين من اكتساب المعرفة والكفاءة للارتقاء به إلى مستوى المتعلم النموذجي، الذي يبني نفسه ويتحصل على مكانة خاصة في مجتمعه. فهذا التصور المأمول للمتعليمين -

جيل المستقبل - لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق مناهج بيداغوجية تشكل أساسا لبناء الكفاءات، ذلك أن هذه البيداغوجيا، تلزمنا بتخطيط تعليمي مرن يؤسس على الوضعيات المنتجة لتعلمات حقيقية، ويتم ذلك بدروس تنشطها وضعيات تكون بدورها في خدمة كفاءات للتعليم والانفتاح على البيئة الخارجية والنقد والمعرفة والمهارات الداعمة لها، وهذا يوجب العمل الجماعي والتعاوني داخل المحيط الدراسي وخارجه، وإذا كانت بيداغوجية المقاربة بالكفاءات تجدد للعملية التعليمية التعلمية، فإنه يستلزم تجديدا يتعلق بتقويم الكفاءة، إن تحققت أم لا، وذلك في ظل معايير متخذة لتوضيح نسبة الوصول إلى الكفاءة - الهدف.

وفقا لهذا النموذج، ولتحسين مردودية المتعلم، وجب أن يوفر الوسائل التعليمية والمحتويات الدراسية المناسبة لهذا الطور الدراسي، وأن يكون الأستاذ في هذه المقاربة ويحرص على تطبيقه لها.

الإحالات

1- ينظر : سلسلة التكوين التربوي، لجنة الإعداد: خالد اللير، إدريس، الطيب أموراق، عبد الرحمن الهامة، محمد ينادة، إشراف: خالد اللير، إدريس قاسمي، أهمية سوسولوجيا التربية، المدرسة ووظيفتها، العملية التعليمية والبيداغوجيا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط(1422هـ، 2002م)، ص: 65.

2- voir : Les méthodes actives, <http://tedfa.unige.ch/proj/cvs/doc-ress/fiches/Méthodes/htmc>.

3- Voir : « La notion de la pédagogie » ; <http://www.arfe-cursus.com/pédagogie1>.

4 - voir : <http://www.almuallem.net/maga/>

5- خير الدين هني، مقارنة التدريس بالكفاءات، ط1 (2005)، ص: 84.

6- ينظر: علي أحمد الحمل، معجم للمصطلحات التربوية، ط2 (1999م)، عالم الكتب، القاهرة، ص: 84.

7- ينظر: للرجع نفسه، ص: 178.

8- ينظر: للرجع نفسه، ص: 239.

9- ينظر: محمد المهدي عفيفي، في أصول التربية، ط(1986م) لأنجلو- مصرية، القاهرة، ص: 181.

10- ينظر: علم الدين عبد الرحمن الخطيب، أساليب طرق التدريس، ط 2 بطرابلس 1997، ص: 49.

11- ينظر: حسن زيتون، نموذج رحلة التدريس، عالم الكتب، ط 1، القاهرة، 2003، ص: 53.